كان حبيبنا ونجمته نجمتنا..!!

في مثل هذه الأيام، قبل خمسين عاماً، دخل جندي من القوّات الحكومية، غرفة مدرسة في قرية بوليفية نائية، وعلى الأرضية الطينية رقد رجل كث اللحية، مغبّر الوجه والثياب، وعلى ساق اخترقتها رصاصة، في يوم سبق، تخثّر دمُ. وما أن أبصر الثاني الأوّل حتى اعتدل قليلاً، وأسند ظهره إلى الحائط، أما الأوّل فأبصره بطرف عينيه، وارتعشت يده على الزناد.

كان كلاهما يعرف مناسبة لقاء أوّل وأخير، يخرج منه الأوّل قاتلاً والثاني قتيلاً. قال تشي للجندي الذي يخشى النظر إلى عينيه، بنبرة هادئة وواثقة، وبما يشبه النصيحة الأبوية من مقاتل محترف: صوّب جيداً، واطلق على القلب. صوّب الجندي زائغ العينين، ومرتعش اليدين، أخطأ القلب، وأعاد الكرّة أكثر من مرّة.

كان هذا قبل خمسة عقود، وعلى مدارها أصبحت الغرفة ذات الأرضية الطينية مزاراً يستدرج ما فيه من عبق الذكرى رجالاً ونساءً من أربعة أركان الأرض. وهناك، في القرية، وفي الأرياف البوليفية، بعض من عاشوا أحداث ذلك اليوم في التاسع من أكتوبر 1967، أو سمعوا عنها من ذويهم، وبين هؤلاء مَنْ تماهى في خياله وجه تشي (حبيبنا) بوجه يسوع المسيح، إن لم يكن صاحب اللحية الكثة، والبيريه المُتوّجة بنجمة حمراء (نجمتنا) قديساً فماذا يكون؟

بعد كتابة السطر الأخير، وجدتني مضطراً لحشر "حبيبنا" و"نجمتنا" ليستقيم الكلام، وكأن هذه وتلك علامة إرشاد على طريق. فتشي لم يصبح قديساً في أعين الفلاّحين في بوليفيا أو أميركا اللاتينية، وحسب، بل هو كذلك في أعين ما لا يحصى من بني البشر في كل مكان: عابر للأزمنة، والأجيال، والحدود، واللغات والثقافات، كما الحرية نفسها، وهو من أبنائها وأسمائها وحرّاسها وأجراسها.

وليس من الضروري، بهذا المعنى، أن تكون ماركسياً لتجد ما يجسر هوّة اللغة، أو القومية، أو الحدود، أو حتى الأيديولوجيا، بينك وبين ما كانه تشي حياً وميتاً. وبهذا نصل إلى "بيت القصيد"، أي إلى المحرّض الرئيس، بالمعنى الشخصي، على استعادة تشي في مثل هذه الأيام. فلا أحد يعود إلى مسائلة الماضي إلا بدافع من أسئلة الحاضر.

كان تشي حياً وميتاً محاولة ترجمة لأشياء من نوع: البشر في كل مكان أخوة للبشر في كل مكان. المشكلة ليست بين أبيض وأسود، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين قومية وأخرى، أو دين وآخر، بل بين مُستغِلين ومُستغَلين. وإذا نشأ

تمييز على أساسا اللون، أو الجنس، أو القومية، أو الدين، فتّش دائماً عن المُستغِلين والمُستغَلين لتجد مفتاح السر.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالعلاقات الدولية، والنظام العالمي، فتّش عن الإمبريالية، وشركائها المحليين، هنا، أيضاً، ستعثر على مفتاح السر. وكلما تعلّق الأمر بالظلم، والعدل، والمساواة، والفقر والغنى، فتّش دائماً عن الطبقات الاجتماعية، وتلاقي أو تضارب مصالحها، ومدى تلاقي أو تضارب هذه وتلك مع مصالح وطموحات ونهم أسياد العالم. هذه نظرة بسيطة، وتبسيطية، بالتأكيد. العالم أكثر تعقيداً من أشياء كهذه. ومع ذلك، لا يمكن في كل نظرة تسعى لتكون أكثر تطوّراً، واعترافاً بالتعقيد، الاستغناء عن أشياء كهذه فرادى أو مجتمعة.

في سياق هذه الخصوصية، التي تنفتح على احتمالات كثيرة، في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وفي أجواء الحرب الباردة (زمن هوشي منه، وماوتسي تونغ، وفيديل كاسترو، وجمال عبد الناصر، وياسر عرفات، والثورة الجزائرية، وحرب فيتنام، والثورة الطلاّبية، واليسار العالمي، وحركة الفدائيين الفلسطينيين، وحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة) كان تشي جيفارا محلياً تماماً في القاهرة، بقدر ما كان كذلك في سان باولو، أو باريس، أو في مخيم الشاطئ في غزة.

لذا كان تشي ظاهرة كونية، واختزالاً لأشياء كثيرة، وقد أراد الذهاب، وذهب فعلاً، أبعد من الآخرين، وكانت الحرب عليه، وعلى ما يُمثّل، كونية أيضاً، قادها الأميركيون في حرب حياة أو موت، عسكرية، وأمنية، واقتصادية، وثقافية، في كل مكان من العالم. وشاء النفط، ومكان إسرائيل، ومنطق السوق، أن يكون الشرق الأوسط من ساحاتها الرئيسة.

من رحم الحرب المعنية، التي لم تبدأ بالجهاد الأفغاني، وإن كان من عناوينها الكبرى، وُلدت الثورة المضادة المعادية لتشي وزمنه، وكل ما يمثّل، ولأن القابلة كانت أميركا، والبطن التي حملت أكثر الرجعيات تخلفاً وعداءً للحرية والإنسان، ولد في الثورة المضادة، ومعها، ومنها، نموذج عجيب وغريب لأشخاص من طراز بن لادن، والظواهري، والزرقاوي، وخليفة الدواعش (ومَنْ لم نعرف من السلالة بعد). هؤلاء رموز عالم (أعني العربي) يُشن الحرب على نفسه، وعلى العالم، في أكبر محاولة للانتحار الذاتي ، بعد الجنون القيامي النازي في أواخر الحرب العالمية الثانية

وهم كل ما يمثل نفياً لتشي وزمنه، وما يمثّل. كان مع حرية الإنسان في كل مكان، وهؤلاء يشنون الحرب على غير

كان حبيبنا ونجمته نجمتنا..!!

المسلمين في كل مكان، وعلى غير السنّة في الغالب، يكرهون النساء، والدولة الحديثة، والثقافة، ولا مشكلة لديهم مع الفقر والغنى، ولا وجود لمفردات من نوع التوزيع العادل للثروة، والحرية، والمساواة، في عالمهم الذي لا تشع فيه سوى الكراهية.

لذا، يعود تشي ويُستعاد، اليوم، كنافذة لا نطل منها على الماضي، بل لنرى من خلالها صورة الحاضر. نستعيد مشهده الأخير، قبل خمسين عاماً، ونقول لأنفسنا، وأصحابنا، ومن يشبهوننا في أربعة أركان الأرض: على الرغم مع كل شيء، كان حبيبنا، وكانت نجمته نجمتنا.

نُشرت اليوم في الأيام الفلسطينية

الكاتب: حسن خضر